عنا وعن ساركوزي وعن الحجاب (١)

بقلم نوال السباعي

مازلت أذكر تلك الحملة الهائلة التي قادها أحد أهم مساجد دمشق الحديثة قبل ثلاثين عاما، والذي كان محاطـاً بالمراكز الثقافية والحضارية في منطقة سكنية مرموقة تخلى معظم أهلها عن كثير من المظاهر الموروثة من "ثقافة" البلـد – ولا أقول دينه ، والثقافة غير الدين!- ، أو بعبارة أوضح : من أولئك الذين كانوا قد هاجروا من "باب الحارة" أو قرروا بناء حارة لا باب لها ولا بوّاب!، حملة تحت عنوان "التزام الحجاب" ، لكن المفاجأة كانت في استغراق إمـام المسجد أربعة أسابيع كاملة غير منقوصة في إقناع مئات الحضور الذين غص بم المسجد بأن الحجاب هو "المنديل" !، و"المنديل" في لغة أهل الشام يوازي تقريبا النقاب في لغة أهل مصر ، والبرقع في لغة أهل أفغانستان ، مـع اخـتلاف الشكل واللون ، وتطابق الوظيفة ، والتي هي ستر وجه المرأة عن أعين المتربصين والمتطفلين والشهوانيين والقـذرين والمهووسين جنسياً وعقلياً والمتحرشين والمطففين ممن يمنحون أنفسهم ويمنحهم المجتمع بسكوته عنهم حقوقاً جـائرة تطفيفية . لم يتحدث الامام –وهو أستاذ وأخ عزيز- عن فلسفة الحجاب الأخلاقية أو الاجتماعيـة والإنـسانية في الإسلام ، كان الحديث وخلال شهر كامل محصوراً وفقط في إفهام الحضور أن كلمة "حجاب" في الإسلام تعـني أن تغطي المرأة وجهها بالكامل ، نتيجة تلك الحملة بالطبع كانت هروب النساء وخاصة الفتيات من تلـك الـدروس والمحاضرات ، وفرارهن من هذا المعنى المبالغ في التضييق لمعنى الحجاب وروحه .

في تلك الأيام أجريت بحثا شمل مقابلات مع بعض علماء دمشق معظمهم من أساتذة كلية الشريعة يومئذ ، وكان من أهم هؤلاء العلماء ، أكبرهم سناً وأوسعهم علماً الشيخ الدكتور الطبيب رفيق السباعي العلامة تلميـذ العلامـة الشيخ بدر الدين الحسيني محدث الشام وفقيهها في الفترة مابين القرنين التاسع عشر والعشرين، وكان إجماع هـؤلاء العلماء في هذه القضية منصباً على أن النقاب ليس هو الحجاب وأنه ليس الحجاب الشرعي المنصوص عليه في القرآن والسنة ، وأضافوا جميعا عبارة "أن ستر الوجه مطلوب في حال لم تؤمن الفتنة " ، وزاد السباعي رحمه الله : "كلمـة مطلوب لا تعني هنا الالتزام الشرعي ولكن "العرف الاجتماعي"، باعتبار العرف بالنسبة إليه ملزما"! ، ولعل بعـض القراء من جيلي يعرف أو يذكر الخلاف الكبير الذي نشأ بين الشيخ رفيق السباعي في حينه وبين الشيخ ناصر الألباني حول هذه المسألة وغيرها حيث كان الألباني من أشهر من قال بجواز كشف المرأة وجهها.

حضرتني هذه القصة الدمشقية وتلك الخواطر القديمة الحديثة، وأنا أشهد الحملة التي تُشَن اليوم على "ساركوزي" لهجومه على "الحجاب" وقيم ومبادئ الإسلام وحضارته!!! –كما قالوا- !! ، وبما أنني ومنذ زمن لا أتابع أخبار الفضائيات ولا أستقي منها معلوماتي ، أجريت بحثا "غوغولياً" عما قاله الرجل وبأكثر من لغة لأتأكد مما تنقله فضائياتنا المشهورة بعدم الدقة فيم تنقل من أخبار !، لأجد أن "ساركوزي" كان قد تحدث عن "النقاب" ، أي عن غطاء الوجه ، هذا النوع من اللباس الذي بدأ يزحف إلى أوربة كمشكلة جديدة تنضاف إلى مشكلات المسلمين اليومية في إطار تعايشهم وتعاملهم مع المجتمعات الغربية التي تجعل من حياتم في أوربة ووجودهم فيها جرحا مؤلماً، من أين نشأت المشكلة ؟ ولماذا تطرق إليها الرئيس الفرنسي زوج عارضة الأزياء التي كانت تعرض جسدها عارية أمام أعين الكاميرات العالمية؟!، وهل فعلا ما حدث كان هجوما على الإسلام وقيمه وتعاليمه؟! وما هي حقيقة وضع النقاب في فرنسة وفي سائر الدول الأوربية ؟!، وهل هذه فعلا هجمة على الإسلام وقيمه وتعاليمه؟!!.

كلام الرئيس "ساركوزي" – ولست ممن يدافع عن مثله، وقد كان وزير خارجية فرنسا الذي قضى بمنع الحجاب في المدارس والمؤسسات الحكومية – أتى في سياق رده المباشر وغير المباشر على ما غمز به أوباما فرنية ولمزها في قضية الحجاب ، ولكن كلام الرجل يأتي كذلك نتيجة تفاقم مشكلة حقيقية يجد فيها المجتمع الغربي نفسه عاجزاً عن التعامل مع ظاهرة يدّعي بعضنا هنا في أوروبا - وهم قلة نادرة- أنها من الإسلام بينما الأغلبية الساحقة في طول أوربة وعرضها من المسلمين ومن جميع الانتماآت السياسية والطائفية والمذهبية تقول بأن هذا النقاب ليس هو الحجاب الإسلامي! ، جرأة الرئيس الفرنسي على الحجاب في حينه كان منشؤها اعترافات كثير من الفتيات المسلمات المحجبات الصغيرات في المدارس بأنهن مرغمات على التزام الحجاب من قبل الذكور وليس بسبب خيارات شخصية ، إضافة إلى مبالغة أخريات في التزام بعض أنواع الحجاب "السياسي" الذي أحدث في بعض المدارس مشادات عنيفة بين الطوائف الإسلامية نفسها فضلا عن خلافات هؤلاء الطالبات مع بقية التلاميذ في المدارس ، أي وبعبارة أوضح : لقد كان تنطع بعض المسلمين في قضية الحجاب في المدارس الفرنسية سبباً في سن تلك القوانين التي منعت فيها فرنسة الرموز الدينية في مدارسها وعلى رأسها الحجاب ، وكان ذلك سبباً في الظلم الفاحش الذي لحق بنات المسلمين ممن يلتزمن بقرارات شخصية حرة حجاباً إسلامياً طبيعياً لا تنطع فيه ولا مغالاة ولا سياسة!!، وأما هجوم ساركوزي الحالي على النقاب فمنشؤه هذا الخلاف الفقهي العميق بين المسلمين أنفسهم فيم يتعلق بالنقاب ، وما يتسبب فيه هذا اللباس من مشكلات حقيقية في المجتمعات الغربية بالنسبة للمرأة المسلمة وأسرتا وأولادها والمسلمين من حولها من جهة ، وبالنسبة للمجتمع الذي يتعامل معها من جهة أخرى، ولقد رأيت بأم عيني هنا في مدريد مسلمات محجبات يتبرأن من المنقبات من صديقاتن أو جاراتن إذا اجتمعن بن في مستشفى أو سوق بسبب ما يتسبب به هذا اللباس من عناء ورفض ومشكلات .

المشكلة الأساسية إذاً هي مفهومنا نحن المسلمون عن فلسفة الحجاب ، ومفهومنا عن إنسانية المرأة ووضعها في الإسلام ، لأن الخلط الفاحش والهائل الذي يناقش به المسلمون هاتين القضيتين في بلادنا وفي أوربة هي السبب الرئيس وراء تجرُء الآخرين علينا ، مستفيدين من هذه الثغرات الخطيرة في جدران مفاهيمنا المعاصرة عن ديننا والتي رفعناها على أساس من العادات والتقاليد التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وعلى أسس نظرات محلية قومية إثنية بالغة التضييق أردنا أن نعممها على عالم فسيح خلقه الله مختلفا بعضه عن بعضه في الفهم والإدراك ، فكانت نتيجة بنائنا الخاطئ أصلا أن آتى الله بنياننا ذلك من القواعد فخرّت علينا كل السقوف من فوقنا وأتانا العذاب من كل حدب وصوب وجلسنا نندب حظوظنا العاثرة في الهجمة الدائبة على الإسلام وقيمه وحضارته!! ، وليس فيم نقدمه للعالم اليوم شيء من روح الإسلام وقيمه وحضارته وفلسفته!!.

من أين نبدأ في هذه المشكلة الأخطبوطية التي تعيدنا إلى مربع نقاشنا الأول في حديثنا عن علاقة السياسي بالاجتماعي بالفكري والإنساني في حياتنا، والتي تطرح نفسها علينا بشكل شائك خطير؟! ، وتحتاج إلى تفصيل فسيفسائي الحكمة للقمان الحكيم، فهو ليس حكما مسطحاً خاصا بتنازع امرأتين على طفل تدّعي كل منهما أنها أمه!!، ولكنه حكم لقمان إذا طلب منه السير في حقل مزروع بألغام عنقودية يراد منه أن يخترقه دون أن يسير يمينا ولا شمالا ولا إلى الأمام ولا إلى الوراء وأن لا يستخدم أية آلة كاشفة ولا بوصلة ولا جوال ولا لاسلكي ودون استعمال للانترنيت ولا للغوغل ولا حتى عن طريق الحاسة السادسة!! ، وأن يكتشف في ذات الحين كل لغم أين هو وكيف زرع ومتى سينفجر، ودون أن ينفجر تحت قدميه عليه السلام!!.

لا يمكن الحكم على شيء بعيد عنك كـ"النقاب في أوروبا" من خلال تصوراتك المحلية عنه ، خاصة في ظل الخلافات الفقهية العميقة جدا فيم يتعلق بذا الأمر كما أسلفت في القصة السابقة ، بين من ينادي بأن الحجاب هو النقاب وبين من يقول أن الحجاب هو ستر الجسم ماعدا الوجه والكفين ، وبين من يقول أن هذه الصورة التي نراها اليوم ليست إلا عادة تركية شرقية غير عربية أصلا دخيلة على الإسلام ومفاهيمه وتعامله مع المرأة .

ولابد من التوضيح وقبل الخوض في هذا المخاض "القاتل" ! أن الفرق كبير جداً بين رؤية المدنية الغربية لقضية المرأة بما فيها من ايجابيات وسلبيات هائلة ، وبين رؤية الثقافات السائدة في بلادنا للمرأة بما فيها من خرق لإنسانيتها واستلاب لحريتها ، وبين الإسلام ..هذا المظلوم الأكبر في قضية المرأة ، الإسلام الذي منح المرأة كرامتها الإنسانية وحريتها الشخصية ومكانتها الأسرية والاجتماعية ، وبين هذه التيارات الثلاث تكمن كل القضية ، في رؤيتنا ورؤية الآخر للحجاب والنقاب ، ويكمن وجه من أوجه مشكلة " ساركوزي " وأوروبا اليوم مع المسلمين وليس مع الإسلام ، لأن المعضلة الحقيقية هي في أنفسنا وفي فهمنا لديننا وفي عجزنا عن البحث عن الصيغ الإنسانية الحضارية الإسلامية التي يمكننا أن نقدمها إلى عالم متعطش إلى حلول وسط تجمع عليها البشرية.